أن يكون مصير المنظمة مشابهاً لمصير حكومة عموم فلسطين، حيث اختلفت الدول العربية فيما بينها على شرعية المنظمة. لكن حدثاً ظهر مع بداية ١٩٦٥، وهو إعلان منظمة فلسطينية عن وجودها بعملية مسلحة في الأراضي المحتلة، فاتحة بذلك مدخلاً جديداً في سور الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

لو لم تنهزم الحكومات العربية في ١٩٦٧، لاختلف الوضع، لكنها انهزمت، ولسنا في معرض تحديد أسباب الهزيمة. وهزيمتها تلك دفعتها إلى تبني شعارات من حمل السلاح من الفلسطينيين (حرب التحرير الشعبية)، وكثرت التنظيمات الفلسطينية المسلحة التي تعبر عن هذا الاتجاه السياسي، أو ذاك، أو عن هذه الدولة العربية أو تلك. وشكلت ظاهرة الكفاح المسلح رداً جماهيرياً على هزيمة الأنظمة، فبدأت الجماهير العربية تنظر إلى المقاومة الفلسطينية باعتبارها شيئاً مقدساً، وصار الفدائي ببذته المرقطة نبياً. والتحق الكثير من المواطنين العرب، خاصة المثقفين منهم، بصفوف المقاومة الفلسطينية في الأردن، وكان لمعركة الكرامة في ١٩٦٨ وهجها، وتأثيرها.

استطاعت الأنظمة بعد أكثر من سنة على الهزيمة من امتصاص الوضع، لكنها وجدت نفسها في مواجهة ظاهرة شعبية بدأ يصلب عودها، والخلافات بينها وبين الإدارة السياسية للفلسطينيين التي رعتها الأنظمة العربية بدأت تتجه نحو الحسم لصالحها، بل حسم لصالحها في ١٩٦٨ بإبعاد الشقيري عن رأس المنظمة، وحلول آخر محله لفترة قصيرة، استلم بعدها زمام المنظمة رجل من أوساط دعاة حمل السلاح، زعيم حركة فتح، ياسر عرفات. وبدأ بذلك سباق الماراتون الطويل بين عرفات والحكام العرب، بين استقلال القرار الفلسطيني، وبين العاملين على تطويعه لصالح هذا النظام أو ذاك. فكانت معارك لبنان بين المقاومة والسلطة اللبنانية في ١٩٦٩ التي انتهت إلى المصالحة بإشراف الأنظمة، وترتيب نشاط المقاومة بما يعني عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية (اتفاقية القاهرة). وكان ذلك الاتفاق بداية فك الارتباط بين المقاومة والجماهير العربية، حيث بدأت الأنظمة بعد ذلك ترتب تعاملها مع المقاومة كنظام، مثلها مثله. وكان عدم التمكن من القضاء عليها في الأردن في عام ١٩٧٠ بداية لمرحلة جديدة، سواء بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية، أو للأنظمة العربية، وحتى للجماهير.

كان يجب أن تعطي دروس ١٩٧٠ توجهاً مغايراً لما حصل بعد ذلك التاريخ، وذلك من منطق التحليل القائل بوحدة المصير العربي المشترك، وأولوية القضية الفلسطينية على ما عداها، عربياً. لكن ما حصل جاء مختلفاً، وقد يكون هذا منطق التاريخ، وهو صواب لأنه يتحرك وفق عناصره وحركته الداخلية، لا وفق تصورات زيد أو عمرو، أو أحلام أي كان.

وبموت عبد الناصر في أيلول ١٩٧٠، حيث كان رمزاً توحيدياً، ولسنا في مجال مناقشة واقعية ذلك، مات على ما يبدو ذلك الوهج الوحدوي الذي شهدته سنوات الخمسينات وأواسط الستينات، حيث كانت التظاهرات تعم الشوارع العربية، لأي حدث يلم بأي قطر عربي. كما أن الأنظمة التي تكرست بعد ذلك التاريخ اهتمت بتنمية أقطارها، وتوفير «الاستقرار الداخلي فيها»، وقامت فيما بينها أشكال من التعاون بما يخدم مصالحها كأقطار، وانتهت بذلك فترة التصارع العربي بين ما عرف بالاتجاهات